القرآن المصدر الأول للتصوف

بقلم: الدكتور
مصطفى كمال وصفى

(٢)

أما القصص القرآنى ، فهو ما تنصلح به نفس الصوفى وتزكو ، ويملأها عبرة وتبصيراً .

ومن أمثلة ذلك قصة بنى اسرائيل ، فلها فى الواقع دلالة صوفيـــة يتعظ بها السالكون من أن ينتابهم الغرور . وتبين مغبة ذلك والاوحال التى يتردون فيها بسبب إنحرافهم .

فبنى أسرائيل كانوا من الذين أنعم الله عليهم . وقال الله « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمه الله عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » . وقال موسى لقومه : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحد من العالمين » .

إلا أنهم أدلوا بذلك وأفسدهم ما غرهم فى دينهم وتبعهم النصارى فى ذلك وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق » وقالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم » .

وأدى ذلك بهم إلى إعراضهم عما أنزل الله ونقضهم ماعاهدوه ، وهم يظنون أنهم الآمنون سخطه ، المقربون منه « يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا » مع ان منهم كبار العلماء وأجلاء الاحبار ، ولكن صار عليهم بلا تقوى ، وعمهم بلا اكتراث وكأنهم أخذوا على الله عهداً بألا يعذبهم .

وأدى بهم ذلك إن أن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم إربابا من دون الله . وجعل هؤلاء الرؤساء يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . واشتروا بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا . وكفروا بآيات الله . وقتلوا الانبياء بغير حق وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس . وسدروا فى غيهم فكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . ولا يقبلون النصح من بينهم . فغضب الله عليهم ولعنهم وجعل قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلمة عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به . ويفترون على الله الكذب ، ويلون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

وإن فى هذه القصة التى استغرقت الكثير من صفحات القرآن الكريم لموعظة لمن يغتر بنفسه من أبناء الطريق ، وهم آمنون غضب الله .

ومن ذلك أيضا قصة بلعم بن باعوراء وهو عالم من علماء بنى اسرائيل أوتى علما من كتاب الله ، وكان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب . فطلب منه قومه أن يدعو على موسى وقومه ففعل . فقال الله فيه « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فصار من الغاوين » أى فلحقه الشيطان ولازمه وصار قرينا له والعياذ بالله بعد ان كان مرفوع المكانة عند الله.

ومنهم من أضله العلم واغتر به كقارون والسامرى .

فأما قارون — فقد كان من قوم موسى ، وكان ابن عم لموسى ، وكان يسمى المنور لحسن صورته قال النسفى وكان أقرأ بنى اسرائيل للتوراه . ولكنه نافق كما نافق السامرى. فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، بان تقوم بواجب الشكر بالعمل الصالح ، واحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لايحب المفسدين ، قال إنما اوتيته على علم عندى ، فنسب لنفسه وجحد فضل الله ، أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا

ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ؟ فخرج على قومه فى زينته، قيل خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من الذهب ومعه أربعة آلاف على زيه . وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج . قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أتو العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون .

قال الله « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون لولا أن من الله علينا لخسف بنا ،

أما خبر السامرى فقد جاء فى سورة طه وهو منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا . إذ رجع موسى من لقاء ربه بالطور فوجدهم يعبدون العجل . وقالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فى نار أوقدها السامرى ، وكذلك ألقى ما معه من الحلى . فأخرج لهم عجلا جسدا ، أى مسجدا ، له خوار صوت وكان يخور كما تخور العجول . فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . فأقبل موسى يلومهم كل بدوره ، حتى قال للسامرى « فما خطبك يا سامرى قال بُصرتُ بما لم يبصروا به ، قال النسفى رأى جبريل عليه السلام على فرس الحياة . فقبضت قبضة من اثر الرسول أى جبريل على فرسه فنبذتها ، أى طرحها على السبائك ، وكانت الفرس حيثما اتجهت خلفت آثار الحياة والروح . فلما ألقى هذه القبضة على الذهب وبث فيها الحياة ، قال : وكذلك سولت لى نفسى، قال موسى : اذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس ، أى لا يمسه أحد ، فمنع من مخالطة الناس منعا كليا وحرم عليه ملاقاته ومكالمته ومعاملته ، وكان به مرض إذا مسه أحد سرت الحمى من السامرى إليه. قال النسفى وكان يهيم فى البرية يصيح لامساس وقيل أراد موسى أن يقتله رحمة فمنعه الله تعالى منه . ثم له بعد ذلك موعد لن يخلفه فى الآخرة يكون عذابه فيه عظيم .

وذلك مثـــل من الغرور بالعلم ، والتردى فى الوحل بسبب الكشف والاختصاص وقانا الله سوء الخاتمة .

* * *

من أجل ذلك كله كان القرآن ربيع قلوب العابدين. وهو لا يفتح إلا لمن جاشت نفسه بالمواجد الصادقة وهامت روحه بالتوبة والندم والقاء الزمام إلى الله والتوكل عليه والانس به والمحبة والفناء فيه . فمن كان هذا شأنه ، تفتح قلبه وقت القراءة فوزن الكلام حق ميزانه ، وأعطاه قدره من الفهم ، فلا يغفل عن شاردة فيه ولا واردة ، ويرى فى كل كلمة حجة ، ويطبقه على حال نفسه وحال من يخالطهم ، فيفهم الأمور على حقائقها . ويرى نقص نفسه وأسباب ما فيه من الحجب والغفلة والكفر والشرك والنفاق . ويرى الناس على حقائقهم فيراهم على قدم بعض الصالحين والمؤمنين ، أو على قدم بعض المجرمين المضلين ، فيلهمه ذلك علما صادقا وينبوعا حقيقيا من المعرفة .

ان هذا القرآن فيه ذكرنا . وهو متحف كبير لجميع أجناس البشر ، وجميع أصناف مجرميه وصالحه . ولذلك فهو يصدق فى كل وقت ومكان فما فيه من ذكر بنى إسرائيل ، ومعانيد قريش ، وعاد وثمود وفرعون وهامان وقارون وأكابر المجرمين لم ينقص بل هم يعيشون بيننا وهم على أقدامهم .

ومن أجل ذلك أمر الله إذا قرىء القرآن أن نستمع له وننصت لعلنا نرحم وقال فيه أنه لو أنزلنا هـذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا » . وقال « لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » .

وأمرنا بالخشوع فى تلاوته ، والبكاء . وورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله بكى من قراءته ، وان أبا بكر كان بكاء .

وقد جاء فى الحديث الصحيح عن البخارى رضى الله عنه أنه السكينة والملائكة تنزل عند تلاوته . فقد قال الليث حدثنى يزيد بن الهاد عن محمد بن ابراهيم عن أسيد ابن خفير قال بينما كان هو يقرأ فى الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوط إذ جالت

الفرس فسكت فسكتت . فقرأ فجالت الفرس . فسكت فسكتت . ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريبا منها فاشفق أن تصيبه . فلما اجترأ ورفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها . فلما أصبح حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير . قال فاشفقت يارسول الله ان تطأ يحيى وكان قريبا منها فرفعت رأسى فانصرفت فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظله فيها أمثال المصابيح فخرجت لا أراها قال وتدرى ما ذاك قال لا . قال تلك الملائكة دنت لصوتك . ولو قرأت لاصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » . (البخارى على حاشية السند . البابى الحلبى الجزء الثالث صفحة ٢١٢) .

وعن مسلم رضى الله عنه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ، حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما ذاك إلا من شىء حدث . فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا فانزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن .. » (الجزء الثانى صفحة ٣٥ طبعة محمد صبيح) .

هذا بعض المكاشفة عن القرآن وتلاوته مما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالسند الصحيح . وأثره الروحى والباطن ليس فى القارىء فحسب ، بل فى عوالم الملائكة والجن .

وهذا بعض ما حواه من سند الصوفية ودعامات منهاجهم .